"صور من شعر الحرب خلال عهد الموحدين"
ـ مقاربة وصفية ـ
Samples of war poetry during the Almoravids era
Descriptive approach

الطالب:طه شقرون
المشرف: أ.د محمد مرتاض
جامعة تلمسان

الملخص:

يتحدث هذا المقال عن موضوع من الموضوعات الشعرية التي شاعت خلال عهد الموحدين ألا وهو شعر الحرب. لقد اتسم هذا العصر بكثرة المعارك والحروب على الصعيدين الداخلي والخارجي، ولما كان الشعر يمثل صورة أمة من الأمم باعتباره من أهم جوانب ثقافتها التي تشكل هويتها، فقد واكب هذه الحروب والمعارك، وسجّل الوقائع والغزوات، فأصبح شكل الشعر –بالإضافة إلى المصادر التاريخية- وثيقة مهمة تفيد الدارسين في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي، إذْ نجد الشعراء الموحدون قد تطرقوا إلى جوانب عديدة تخص موضوع الحرب والصراع الدائر بين الموحدين وأعدائهم بدءا باستنفار القبائل العربية واستلهام التراث لبث الحماسة في الجنود إلى وصف المعارك والأسلحة التي استعملت فيها، فمن خلال بعض النماذج المذكورة ندرك القيمة التاريخية لهذا النوع من الشعر باعتباره صورة عاكسة للبيئة العسكرية خلال هذه الفترة.

الكلمات المفتاحية : شعر / حرب/ الموحدون/ وصف/ سلاح

Abstract:

This article is about a famous poetry topic during the Almoravids era and which is "the war poetry". This era was characterized by the numerous battles and wars on the interior and exterior levels, since poetry represented a part of a nation as an important component of its culture which formalized its identity; it accompanied these wars and battles, and registered the combats and the invasions- this kind of poetry has become in addition to the historical sources- an important document which benefits the researchers in the field of the history of Islamic Maghreb. We find that the Almoravids poets dealt with several topics related to war and conflict between the Almoravids and their enemies staring with putting on the alert the Arab tribes and using the tradition to encourage the soldiers, to describing the battles and the arms used. Through some mentioned samples we recognize the historical value of this kind of poetry, since it is considered as a reflection of the military environment at era.

Key- words
Poetry- war- Almoravids-description-weapon

المقال :

تميز الأدب العربي في بلاد المغرب الإسلامي بطابعه الخاص فبالإضافة إلى إيقاعه المؤثر في نفوسنا فهو أدب يمثل الامتداد الطبيعي للحضارة العربية الإسلامية، والأدب في هذه البيئة قد خاض تجارب كثيرة تعبر عن حياة العرب المسلمين من خلال ما تميزوا به من خوضهم للعديد من المعارك والفتوحات، ولما كان الشعر يمثل صورة أمة من الأمم باعتباره من أهم جوانب ثقافتها التي تشكل هويتها ارتأيت أن يكون موضوع مداخلتي حول شعر الحرب في العصر الموحدي من خلال التطرق لبعض صوره وأشكاله.

لقد اتسم عصر الموحدين بكثرة المعارك والحروب على الصعيدين الداخلي والخارجي فمنذ أن أعلن "محمد بن تومرت" دعوته بدأ يعد العدة لتقويض دعائم حكم المرابطين فكوّن الأنصار والأتباع ودربهم على السلاح. وبعد وفاته، تسلم خليفتُه "عبد المؤمن بن علي" الراية واستطاع القضاء على الحكم المرابطي وتثبيت أركان الدولة الموحدية في المغرب الأقصى.ولما استتب لها الأمر هناك، انطلقت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجيوش الموحدية نحو الشرق والأندلس لتوسيع رقعة الدولة، فخاضت الحروب العنيفة على جميع الجبهات، وكانت لها أيام وعليها أخرى.

وواكب الشعر هذه الحروب والمعارك، وسجل الوقائع والغزوات والحروب فأصبح شكل الشعر – بالإضافة إلى المصادر التاريخية- وثيقة مهمة تفيد الدارسين في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي .

فكيف نظر الشعراء الموحدون إلى هذا الصراع؟

كان الصراع بين الموحدين والإسبان في الأندلس صراعا بين عقيدتين : الإسلام والنصرانية(1)،فلم يقف الشعراء الموحدون مكتوفي الأيدي ، بل واكبوا الصراع الجاري وتأثروا به وصدّروا في شعرهم عن مفهوم إسلامي شامل، من ذلك ما قاله عبد المؤمن بن علي في انتصار الجيوش الموحدية على النورمان في المهدية سنة (555هـ/1160م) (2):

وأشرقت الشمس المنيرة فوقنا * وأصبح وجه الحق غيرَ مُحجَّــب**

وطُهِّر هذا الصُقع من كل كافر ** وعاد به الإسلام بـــــــعد تقلـــب

وكُسّرتْ الصُلبان في كل بِيعة ** ونادى مُنادي الحقَّ في كل مَرْقَبِ(3)

فالشاعر قرن انتصار المسلمين بشعائر دينهم " ونادى منادي الحق في كل مرقب" كما ربط انتصار النصارى بطقوس عبادتهم" وكسّرت الصلبان في كل بيعة" ، واستخدم للتعبير عن فكرته ألفاظا مرتبطة بعقيدة الطرفين مثل : الحق، كافر، الإسلام، الصلبان .

كما شاع في شعر الحرب استعمال الشعراء لمصطلحات توضح فهمهم الإسلامي لهذا الصراع، فقد أطلقوا على جيش المسلمين اسم "حزب الله" مستوحين هذه التسمية من القرآن الكريم (4)، فمن هذا قول أبي العباس الجراوي(5) :

رَأوْا لحزب الإله صبرًا * والموتُ حَفّتْ به الجهاتُ**

وجيش المسلمين هو جيش الحق، بيمنا جيش الأعداء هو جيش الظلال، يقول أبو الربيع(6):

جيش الظلال بجيش الحق مهزوم ***فنفّذ العزم إن الفتح محتومُ

وجنود المسلمين هم جنود الله، يمدهم بجنود من الملائكة لتحقيق النصر:

من ذا يردّ جيوش الله يقدمها * ـ حيث انتحيت بها- للنّصر حَيزوم(7)**

فالصراع مع الفرنجة إذاً صراع بين الإسلام والنصرانية، وقد وعى الشعراء هذا الأمر، فعبرّوا عنه بشعرهم تعبيرا واضحا، واستعانوا بالقرآن الكريم ومفاهيمه للتعبير عن هذا.

ومما يتصل بهذا الأمر حديث الشعراء عن عقيدة أعدائهم، إذ كان الصراع بين الموحدين والإسبان صراعا عقديا، فلا عجب أن نجد الشعراء الموحدين يلحون في أشعارهم على الحديث عن عقيدة أعدائهم، منطلقين من نظرة إسلامية لهذا الصراع، فالإسبان مشركون عند أبي الربيع(8):

وكأنّما آلت عليك أليّة * ألاّ ترى بك في البسيطة مشركا***

وهم كفار عند عبد المؤمن(9):

ولابدّ من يوم أغرٍّ مُحجّل * يُسيل دماء الكفر في كل مِذْنَبِ**

ويرى فيهم الجراوي أهل ضلالة في قوله(10):

ألقى على أهل الظلالة كَلْكلاً * فلهم عويل تحته وأنين ****

وكثيرا ما يذكر الشعراء تكسير الصلبان إشارة إلى انتصار المسلمين، كقول عبد الواحد المراكشي(11):

يذر الصليب صغيرَهُ وكبيرَهُ * فيها جُذاذًا والعلوجُ جُثومُ .**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن صور شعر الحرب في عهد الموحدين إلحاح الشعراء على استثارة المشاعر الإسلامية لدى القبائل العربية القاطنة بإفريقية، إذ قام الشعراء بتبصير هذه القبائل بالخطر الذي يهدد الإسلام في الأندلس ، وحثوها على الانبراء للدفاع عنه مذكرين بما قام به أجدادهم في نصرة الإسلام أول مرة.

ومن هذه القصائد دعوة الشاعر الجراوي أبناء قبيلة "بني عامر " إلى الالتحاق بالجيوش الموحدية المجاهدة وهو في ذلك يستمر في استنهاض هذه القبيلة فيصف أبناءها بالعزم والتصميم ورجاحة العقل(12):

بني عامر أنتم صَميمٌ فصَمّمُوا * إلى الموت، تَصْميم الليوث الخوادِر**

ولا تتوانوا في حظوظ نفوسكم * فإنكم أهـــــــل النهى والبصـائـر**

ومن هذه القصائد في هذا الغرض كذلك قصيدة ابن طفيل التي نظمها بأمر يوسف بن عبد المؤمن ومطلعها(13):

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب * لغزو الأعادي واقتناء الرّغائب**

وقصيدة ابن سهل الأندلسي(14) ومطلعها :

وِردا فمضمونٌ نجاح المصدر * هـــي عزة الدنيا وفوز المحشـــر**

وقد استجابَ أبناء القبائل العربية للدعوات الموحدية المتتالية للالتحاق بالجيوش الإسلامية المجاهدة في الأندلس ، وأبلوا في الحرب بلاء حسنا.

إن إلحاح الشعراء في استنفار القبائل العربية كان على أساس استثارة المشاعر الدينية لكون سواد الشعب المغربي كان من البربر المسلمين، كما أن المجتمع الأندلسي كان يتألف من عناصر مختلفة.

لذلك فإن النزعة الدينية تبقى أهم النزعات التي توجه اهتمام الشعراء إليها لكونها تؤلف بين مختلف عناصر المسلمين.

استلهام التراث:

إنّ المتأمل في شعر الحرب خلال عهد الموحدين، يلفت نظره ظاهرة تتكرر في هذا الشعر، وهي الالتفات إلى التاريخ الإسلامي المشرق، واستلهام بعض صفحاته وربطها ببعض الوقائع والشخصيات الإسلامية في عهد الموحدين، فقد أوحى انتصار الموحدين في معركة" الأرك"-مثلا- إلى أبي العباس الجراوي بانتصار المسلمين يوم بدر(15):

لقد أورد الأذْفُنْش شيعته الرّدى * وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى**

حكى فعل إبليس بأصحابه الأُلى * تبرأ منهـم حين أوردهـم بـدرا**

كما نجد الشاعر عبد الواحد المراكشي يقرن شخصية ممدوحه إبراهيم بن أبي يوسف في رعايته للعلم والعلماء بشخصية الخليفة الموحدي المنصور، فيقول:(16)

أحييتم المنصور فهو كأنه ***لم تفتقده معالم وعلـــــوم

ومحابر ومنابر ومحارب * وحمى يحاط وأرمل ويتيم**

والشعراء في صنيعهم هذا يكسبون قصائدهم هالة إسلامية وضاءة، قادرة على استثارة إيحاءات فكرية وعاطفية في نفوس المسلمين جميعا، والمقاتلين منهم خاصّة.

وصف السلاح :

ومن صور شعر الحرب كذلك في عهد الموحدين حديث الشعراء عن الأسلحة التي كانت الجيوش الموحدية تستعملها في معاركها، فالأسلحة التي تردد صداها في الشعر أسلحة تقليدية في أغلبها: كالسيف والرمح والسهم والخيل، فقد كثر وصف السيف كثرة مفرطة، وليس هذا غريبا فهو السلاح الأكثر استعمالا، وهو الذي يحدد بطولة الفارس في أرض المعركة. فالسيف الموصوف إما أن يكون من سيوف الهند القاطعة المعروفة بجودتها، كما يقول الجراوي(17):

رَدّت حمى الفُنْش مستباحا * بيضٌ من الهند مرهفات**

أو من السيوف المشرفية الشهيرة (18):

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أَعْليت دين الواحد القهار * بالمشرفية والقنا الخطّار**

أو هو ينتمي إلى سيوف اليمن عند أبي حفص بن عمر(19) :

أخوان إما حكمة أو مرهف * هذي يمانية وذاك يماني**

وكثيرا ما يستعمل الشعراء أسماء أخرى للسيف، كالحسام عند أبي الربيع:(20)

وتخاصمت مُهج النفوس بها إلى * حدّ الحسام فلم تُشْر إلا بِكا**

كما ذكر بعض الشعراء الخيل ولمحوا إليها دون تدقيق، من مثل قول الجراوي حين يشبهها بأمواج البحر التي تغرق جموع الأعداء (21):

وغرّقت جمعهم بحار * أمواجها الخيل والكماة**

وقد يتحدث الشعراء عن جريها في المعركة، كقول أبي الربيع (22):

لله جأشك والصّوارم تنتضى * والخيل تردي والأسنّة تشرع**

وكثيرا ما يقرن الشعراء بين سلاحين أو أكثر في بيت واحد، فمن ذلك جمع الشاعر بين السيف والرمح، وهما عماد التسليح للجيوش آنذاك، لذلك كثر الجمع بينهما كقول أبي حفص بن عمر:(23)

أطاعتك الذوابل والشّفار * ولبّى أمرك الفلك المدار**

وقد يجمع الشاعر بين الخيل والسفن ليدلنا على اشتراك القوات البرية والبحرية ، كقول الجراوي(24):

فشكرا لخيل وفلك دنَت * بمستأصل الظلم ماحي الظُّلَمْ**

ويصف الشعراء أثر السلاح في الأعداء ، فسيف الممدوح عند أبي الربيع متلف الأنفس :

ولم أر مثل السيف متلف أنفس *** وإن كان في بعض المواطن شافيا

لقد ألمّ الشعراء المغاربة في عهد الموحدين بوصف السلاح الذي جاء في أثناء القصيدة المدحية ، فجاء حديثهم مقتضبا فيه الكثير من العمومية .

وصف المعارك :

إن ما وصل إلينا من شعر الحرب عموما جاء في أثناء قصيدة المدح، وفي معرض تصوير مظاهر قوة الممدوح، إذ كان الشعراء يصفون أنواع السلاح من خيل، وسيوف، ورماح وقلاع، وسفن وغيرها فإذا ما بحثنا عن وصف المعارك والحروب ألفينا ذلك أمرا نادرا في أشعارهم على كثرة المعارك والحروب التي خاضها الموحدون(25)، وقد يعود ذلك إلى أنّ كثيرا من الشعراء المغاربة كانوا يصفون تلك المعارك على السماع، ولم يكونوا يخوضون المعارك مع الجيوش المحاربة .

ومن النصوص النادرة: مقطوعة للشاعر أبي حفص بن عمر من بيتين، يصور فيهما التحاما بين الأبطال في ساحة المعركة، ولا يفصح فيهما عن هوية المتقاتلين، ولكن الطرافة في الصورة هي جعل الرائي يظن أنّ هؤلاء الأبطال إخوة يتعانقون بحرارة بعد غياب، ولا يخطر في باله أن يكون هذا العناق من شدّة البغض، يقول الشاعر:(26)

يتعانقون إذا لقوا أعداءهم * يوم الكفاح تعانق الإخوان**

ها إنّما ذاك التعانق بينهم * من شّد البغضاء والشنآن**

وفي المقابل فإنّ الشعر الأندلسي في هذا العهد حافل بتصوير المعارك، وقد خلّف لنا الشعراء الأندلسيون لوحات رائعة في وصف المعارك البرية والبحرية والسبب هو معايشة هؤلاء الشعراء لأحداث الصراع، ومشاركة بعضهم في المعارك وهذا ما يجعل وصفهم لها يتّسم بالواقعية والحيوية.

لقد وعى الشعراء طبيعة الصراع بين الموحدين وأعدائهم فلم يقفوا بشعرهم عند نقل أنباء المعارك وسردها فحسب، بل تعدوها إلى اتخاذ مواقف في شعرهم من هذا الصراع، ومن هذه المواقف الحث على الوقوف في وجه المد الفرنجي الذي يتهدد الوجود الإسلامي بالأندلس وبث روح الجهاد بين الجموع الإسلامية لإنقاذ حواضرها من خطر الأعداء.

فهذا أبو الربيع الموحدي يثق ثقة مطلقة بانتصار جيوش المسلمين، لذا يطلب من الخليفة المنصور أن ينفذ عزمه على جهاد الأعداء بقوله(27):

جيش الظلال بجيش الحق مهزوم * فنفذ العزم إن الفتـــح محتوم**

وجس بعسكرك المنصور محتكما * أرض العدا فالذي وددت معلوم**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جيش تصدّى لدين الله ينصره * من يحرم الغزو فيه فهو محروم**

ومن الأساليب التي لجأ إليها الشعراء الموحدون في حروب الأندلس: أسلوب الحرب النفسية التي أيقنوا بجدواها في رفع معنويات المسلمين ودعم الجبهة الداخلية، فأكثروا من الحديث عن قوة جيوش المسلمين، وضخموا الانتصارات الموحدية، وفي المقابل هوّلوا هزائم الأعداء وبالغوا في تضخيمها، وأزروا بقيادات العدو فوصفوها بالجبن والنكوص في المعارك، والجهل بأساليب القتال وخططه؛ لخلق حالة من عدم الثقة بها، وصنعوا الصنيع نفسه في وصف الجيش الاسباني.

فهذا أبو الربيع الموحّدي يدعوا الأعداء الإسراع في طلب الأمان من السلطان، بعد أن دمّر بلادهم فأضحت خرابا؛ لأنه قادر على الصفح، وقادر على العقاب(28):

هذي ديار العدا يباب * تعوي بأرجائها الذئـــاب**

أجلى من الخوف ساكنوها * فعمّها النهب والخراب**

فَقُلْ لأهل الصليب حقًّا * إنّهم خسروا وخابـــوا**

فليطلبوا الأمن من إمام * في كفّه الصفح والعقاب**

ونخلص إلى أن الحروب التي خاضها الموحدون قد نالت اهتماما كبيرا من قبل الشعراء؛ إذ حاولوا أن يواكبوها، ويصوروها في أشعارهم فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا ذكروها، فكان هذا النوع من الشعر يمثل صورة حقيقية وسجلا تاريخيا يحكي بطولات وأمجاد الجيوش الموحدية .

هوامش الدراسة :

1- انظر تفصيل ذالك في أطروحة جمعة شيخة "الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي"، رسالة دكتوراه بكلية الآداب، جامعة تونس، 1982. قسم الحروب 397-483.

2- ابن عذاري البيان المغرب في اختصار أخبار الأندلس والمغرب، تح: محمد ابراهيم الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985م. ص:64،

3- البيعة :كنيسة النصارى ومحل عبادتهم.

4- المائدة ،ص:.56

5- ديوان الجراوي ، صنعة علي إبراهيم كردي، دمشق، دار سعد الدين، 1994، ص:.56

6- ديوان أبي الربيع،تح: سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة،1970 ص:32

7- حيزوم: فرس جبريل عليه السلام

8- ديوان أبي الربيع:ص29.

***ألت ألية :أقسمت يمينا**

9- ابن عذارى ، البيان المغرب،ص:.65

10-ديوان الجراوي،ص:167

****الكلكل : الصدر**

11- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب تح: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة القاهرة،1949م،ص:.309

12- شعر الجهاد في عصر الموحدين، مكتبة الأقصى، عمان، 1984م، ص:.71

13- ابن صاحب الصلاة :المن بالامامة، تح: عبد الهادي التازي، بغداد، 1979م، ص:437

14- ديوان ابن سهل،تح: محمود قبعة، مطبوعات الجامعة التونسية، تونس، 1985م، ص:.57

15- ديوان الجراوي، ص:.91

16- المراكشي:المعجب، ص: 309

17- ديوان الجراوي،ص:.50

18- ديوان الجراوي، ص:.86

19- صفوان بن ادريس: زاد المسافر وغرّة محيا الأدب السافر، تح: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، 1980م، ص:.143

20- ديوان الجراوي، ص:51

21- المصدر نفسه ،ص:130

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

22- ديوان أبي الربيع ، ص: 21
23- ابن سعيد : الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة،تح: إبرايم الأبياري، دار المعارف، القاهرة، م1967 ، ص: 96.
24- ديوان الجراوي ،ص: 154.
25- أطروحة جمعة شيخة، الفتن والحروب، قسم الحروب والمعارك،ص: 397
26- صفوان بن ادريس: زاد المسافر، ص:144
27-ديوان أبي الربيع ،ص:.32
28- المصدر نفسه، ص:35-36.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com